هموم امرأة موظفة

ابتسام شاكوش - سورية

أم جابر صديقتي، تنتظرني في مزرعتها، دعتني مع مجموعة من الصديقات لنمضي يوم العطلة بين تفاصيل الطبيعة، مصطحبات أولادهن، أما أولادي فقد تزوجوا وحملوا هموم بيوتهم بعيدا عن بيتي، سأمضي هذا النهار في المزرعة، هناك حيث كل ورقة تسقط عن غصنها، وكل مزقة غيم تعبر فوق كف الريح الباردة، تذكرنا بأن الله عظيم.

ستحضر سعاد ووداد وفاطمة، وأخريات، سنترك الأولاد يتراكضون ويمرحون بعيدا عن أسوار المنازل ونظام المدارس، وننشغل نحن بما يسرنا، سيمتلئ الجو مرحا، هذه الرحلة لا ينبغي أن تفوتني، أنا المحتاجة دوما للخروج من رتابة الحياة، محتاجة لما يزيح عن خاطري هذا الوزر الزائد من المشقة.

مازلت مترددة، هل ألبي دعوتها؟ أتراني أستطيع الاندماج في حديث النسوة ومرحهن؟ أتراني قادرة على الخروج من قوقعة همّي، مستعدة للقيام بواجبي من المهمات التي تنتظرني لتحضير غداء خاص اتفقنا على كيفية إعداده، سنأكله بعيدا عن جدران الأبنية الطابقية المقيتة، بعيدا عن النوافذ المحجوبة بستائر تضاهي الجدران صفاقة وظلاما، سنتناول طعامنا هناك، مقتعدات التراب ملتصقات بالطبيعة، منعتقات من كل مظاهر التهذيب المصطنع والنفاق الاجتماعي.

وأعود لأسأل نفسي: أتراني أستطيع؟ الأستاذ فادي يملأ ساحة فكري منذ ظهر الأمس، ينفرش ظله على كل دقائق ساعتي وثوانيها، يقتحم علي تأملاتي، أحاول إبعاده عن مجرى همومي، أحاول البحث عن حلول لمشكلتي معه، لا أصل إلى شيء، لا أحد ممن أثق بهم يملك تجربة في هذا الميدان ليرشدني، بمن أستعين؟ ليس سوى الله أبتهل إليه وأطلب منه عونا.

بعد جولات عصبية في جنبات بيتي الصغير أجلس مقابل التلفاز، أتابع برنامجا وأتساءل: أهذه نشرة الأخبار؟ وأكتشف أني أمام برنامج اقتصادي يشرح حركة السوق المحلية والدولية، قلت لنفسي: سأتابعه علني أفهم شيئا مما يدور

حولي ويحاول إغراقي في تياره، جلست صامتة،الصور تتحرك على الشاشة وعقلي يتحرك بعيدا في مكان آخر، انتبهت إلى الشاشة، وجدت صورا تتحرك بلا صوت، لراقصين وراقصات،متى انتهى عرض البرنامج الاقتصادي؟ أأنا من أغلق مفتاح الصوت؟ متى؟

وعاد الأستاذ فادي من جديد، يجتاح ساحة خيالي،، هذا المدير الجديد يقارب في عمره أصغر أولادي، لكنه مدير، ويشتغل خيالي ليعيد مشهدا حدث عصر هذا اليوم، وقف أمام مكتبي، انحنى بوجهه قبالتي، تراجعت بجذعي للخلف، لكني ما غضضت الطرف حياء، لا، فلست في موقف يتطلب حياء، بل لبثت أتفرس في ملامحه، أراقب التماعة عينيه وارتعاشة أنفه، بلطف وتهذيب لا يليقان بأمثاله! همس:

- يا آنسة...

لم أجب، بل واصلت التحديق في وجهه منتظرة منه البوح..

- تعالي نتفاهم.

- وهل اختلفنا لا سمح الله؟ هل بيني وبينك سوء تفاهم؟ أجبت بتهكم!

- أجل..

- حول ماذا؟

سألته متغابية، كأني لم أسمع ما نقله لي بالأمس صديقه يوسف، وكأني لا أعلم أن يوسف ذاك نقل إليه ردة فعلي مضيفا الكثير من الملح، ومن الفلفل. اصطبغ وجهه بحمرة الغضب كمن تلقى صفعة مفاجئة، هرب منه الكلام فترك المكان محترقا بنيرانه، ابتسمت في سري، هذه جولة رابحة، لكن المعركة لم تنته بعد، بدأت استعدادي للجولة القادمة.

أمر نزهتنا في المزرعة حسم منذ أيام، ما عاد بوسعي الاعتذار لمثل هذا النهار السعيد، لابد لي من تحضير زاد للرحلة، يداي تشتغلان بتحضير الزاد، وذاكرتي تستحضر الأستاذ فادي،القلق يشملني ببردة الخوف،مصدر رزقي في خطر، وهذا المدير الغامض جاء إلينا مدعوما من حيث جاء، عالما بأن مؤسستنا البعيدة عن المركز، أرض خصبة للرشوة والسرقات، واعدا نفسه ومن دعموه باستخدام ذكائه في طاقته القصوى، للعودة ظافرا في وقت قصير.

عاد إلي بعد ساعة والغضب يحرق أدمة وجهه، حاول كظم غيظه، تلطف كثيرا في مخاطبتي، فرش راحتيه على الطاولة أمامي وانحنى بجذعه.

مرة أخرى تراجعت مجفلة، وتركت نظري يطوف بين تفاصيل المشهد، رقبته النحيلة تنبت من فوق نحره تمتد وتتلوى كجذع دالية، مانعة بركان الكلام البعيد عن التهذيب من الانفجار في وجهي، ربطة عنقه العريضة جدا، استراحت على كومة الأوراق أمامي، خلتها لسانا آخر نفر من حنجرة الأستاذ وتدلى ليلهث تعبا،من كثرة اللف والدوران حول فكرة أراد إيصالها لي وسد غبائي عليه كل طريق،فما عاد لديه من الوسائل سوى مخاطبتي بالكلام المقشر، بعد كثير من التلميح عن الفروق الشاسعة بين جيلنا المتمسك بأخلاق أبلاها الزمن، وجيلهم الطموح، المستعجل على بناء الثروة والوصول إلى قمة المجد:

- يا آنسة ..!

بقيت صامتة..

- الناس هنا يتناولون سيرتك بالسوء، وأنا لم أجد ما أدافع به عنك.

- من كلفك بالدفاع عني؟ أرح نفسك واتركهم يثرثرون، سيسكتون حين يعدمون الرد، وسأسامحهم.

- يقولون إنك غبية ، لكني لا أسخو بك، لا أعتقد أنك كما يقولون

- أنت حر فيما تعتقد

مرة أخرى خرج من الغرفة اتقاء الانفجار، ردودي الباردة الغبية تكاد تقتله، أتراني انتصرت في هذه الجولة أيضا؟ النتيجة لم تظهر بعد، والأستاذ ما زال يناور، في هذه اللحظة جاءني مواطن يسأل عن أوراقه، دققتها له، وضعت عليها إمضائي، سألني: كم تريدين؟ هنا دخل الأستاذ فادي مرة أخرى، وقد

اتخذ قراره، لكنه فوجئ برؤية الرجل فوقف منتظرا خروجه.

قلت للرجل: أوراقك هذه تسير في دائرتنا مجانا (ببلاش)، لو طلب منك أحدهم نقودا فقل له: إن الآنسة أوصتني ألا أدفع.

سألني: وأجرتك؟

قلت له: إن أجرتي أقبضها مرتبا من المؤسسة في بداية كل شهر.

كان الأستاذ ينقل النظر بيني وبينه بعينين توشكان على الخروج من وقبيهما، تؤازرهما كل عضلات الوجه في التشنج.

قبل هذا المواطن جاء مواطنون آخرون، أوصيتهم بمثل ما أوصيته، لكنهم عادوا إلي بأوراق رفض الأستاذ فادي وضع خاتمه عليها (ببلاش)، أخذتها منهم، واقتحمت مكتبه، ختمت لهم الأوراق بيدي، ثم وضعتها أمامه مشيرة إليه أن ضع توقيعك هنا! ما كان يملك الاعتراض، مد يده بالقلم، وببطء محتضر يتنازعه الموت والحياة، وضع توقيعه، أخذت الأوراق، سلمتها لأصحابها وعدت لمكتبي.

- اسمعي...بصراحة.. أنت تقطعين رزقي في هذه المؤسسة وتسببين لي المشاكل مع الإدارة ومع المواطنين، الناس هنا صاروا يعرفون — على يديك - حقوقهم، ويعرفون كيف يعترضون على مطالبي، اسمعي، أنا أحترم قدمك في الوظيفة، لذلك سأعطيك مهلة حتى آخر الشهر، شاوري نفسك، إما أن تنصاعي لرأي المجموعة وتعملي كما نعمل جميعا، ويكون الخير لك ولنا، وإما أن أقترح على الإدارة نقلك إلى منطقة نائية، أنت موظفة متعبة، عنصر نشاز،لا حاجة لنا بك هنا..!

- أنا القديمة هنا في هذه المؤسسة وأنت الجديد..

- أنا المدير وأنت موظفة عندي...

- في الحقيقة يا سيدي المدير، هذا ذنب أبي، لقد أخطأ في تربيتي خطأ فادحا لا يغتفر، لم يعلمني السرقة ولا علمني التسول، والأفظع من هذا وذاك، أنه رباني وأنفق عليّ من ماله الحلال، لم يعلمني اقتناص المال الحرام لبناء الثروة، لذلك تراني أتعامل مع مراجعي المؤسسة بهذا الغباء، سأعود إلى أبي لأحاسبه على تقصيره، وحين يعلمني أبي اللصوصية أو التسول سأعود إليك عودة المنتصر، سأضم يدي إلى يدك، لنبني لكل منا ثروة ما استحقها أبي ولا أبوه من قبله...

هي جولة من معركتي معه،هذا المدير يختلف عمن سبقوه، أعرف أن له يدا طولى، أعرف أن له أعوانا داخل المؤسسة وخارجها، أعرف أنه قادر على تنفيذ ما توعد به، وأنا مالي من معين سوى الله، أرسلت نظرة ضارعة إلى السماء ودعوت: اللهم اكفنيهم بما شئت!.

الحافلة التي ستنقلنا إلى المزرعة أطلقت أبواقها في الشارع، لبست حجابي، لحقت بها وأنا أمني النفس بجلسة للتأمل، أرقب فيها بزوغ القمر ■